أهداف أم رغبات؟

٣- صغيرٌ مدلل

صديقى، ونحن نتكلم عن الأهداف والرغبات، ترى ماذا كانت مشكلة الإبن الأصغر(الضال، التائه، التائب العائد) فى (لو١٥)؟ تخيلها معى؛

إبنٌ صغيرٌ مدللٌ، فى رعاية أب غاية فى الغنى والرقة والحب والصبر والاحتمال، لم يتركه فى احتياجٍ مطلقًا، ويأتى الولد الصغير يومًا وبجهلٍ يطلب مايصيبه من الميراث ويترك البيت. نسأله: ما الذى كان ينقصك لتفرح وترتاح فى بيت أبيك؟

يرد وقد عاش كل الرواية:

-- نظرت فقط لما فى يده، لغناه.
عبرت على كل صفاته الحلوة التى احتوانى بها

وتجاهلت كل تعبه لكى يريحنا
وفى عَمَى قلبى لم أر إلا رغبتى الجامحة، الفكاك.
أن آخذ مالى وأمرح فى حرية.
وذهبت تاركًا أبوته مجروحًة وقلبه حزينًا
لا أحكى لكم عن الندم فقد قرأتموه جيدًا.
ولكنى أشكر إلهى الذى أعادنى إلى عقلى.
فرجعتُ غيرَ راغبٍ فى شئ سوى أبى ووجودى معه،
وفى ذلك كل الكفاية.

لعله درس لنا جميعًا، أن نفتح عيوننا على حياتنا، ونلاحظ كيف صار الرب لنا ذلك الأب الغنى الذى جهز لنا كل شئ، أعد لنا حياتنا الأرضية؛ البيت والأهل والدراسة والعمل، الأصدقاء والأحباء، الخير والبركة، المواهب الطبيعية من ذكاء وجمال وحكمة. وغير ذلك الكثير...

هل ننسى الكل ونذهب بعيدًا وراء رغبة رخيصة تبدد الراحة وتضيع الكرامة؟

صدقنى ياحبيبى كانت تكفيه الأبوة ليفرح، ولكنه تجاهلها وتذكرها فقط فى الكورة البعيدة " كم من أجير لأبى يفضل عنه الخبز وأنا هنا أهلك جوعًا، أقوم وأذهب إلى أبى وأقول له: يا أبى أخطأت ".

أنظر كلمة " أبى "، قالها ثلاث مرات فى نَفَسٍ واحدٍ، مسكين تعطش لها جدًا، ولما عاد، بكل تأكيد لم يشغله سواها، سوى الأبوة.

أتخيله واقفًا مسمَّرًا فى مكانه يلبسونه الحلة الجديدة فلا يتحرك، والخاتم والحذاء فلا ينبهر، يذبحون العجل المسمن ويهللون وهو صامت متأملٌ، كل نظره مثبت على ذلك الوجه الوقور المحب، وجه أبيه العجيب.

آه .. لقد وعى الدرس جيدًا، الآن، كل هذه الأمور لا تشغلنى عن هذا الوجه، عن هذا القلب، عن

هذا الحب. ها هو يعترف بلسانى ولسانك فانصت إليه جيدًا:

* أنا هذا الإبن المدلل يا ربى، علمونى أن أرنم هكذا،
ربما لذلك آذيتك بدلالى، وأهنتك بلهوى.
لم أقدر تعبك لأجلى، فاستهنت بالنعمة، ورحتُ بعيدًا أبددها
وأصغر وصية من تعليماتك،
التى هى لضبطى ومنفعتى،
حسبتها قيدًا على حريتى،
فاشتهيت حرية زائفة خارج البيت،
كانت الرغبة التى قتلتنى!
لكنك لم تتركنى هالكًا،
أيقظنى روحك القدوس الحلو الودود،
فأعاد لى عقلى ورد لى ذاكرتى التى دمرتها المذلة فى الكورة البعيدة،
اشكرك من عمق أعماقى.
لا تسألونى عن مشاعر يا رفاق،

صحيحٌ كل ما تأملتم فيه،
لم يشغلنى سوى وجه أبى وهو ينطق بالبِشر (البهجة)،
وهو يراقب دهشتى وانبهارى بحبه،
لم يعاتبنى على رغبتى الحمقاء التى أهانته،
لم يعاقبنى على ماله الذى بددته بعيش مسرف،
إنما عوضنى كل شيء، بغناه الذى لا يوصف.
نصيحتى لكم، يا أصحاب الرغبات الرخيصة، حذارى.
اجعلوه هدف وجودكم ومشتهى حياتكم، وسوف لا تخسرون.
اعلموا أنكم فى غنى جزيل وتيقنوا من حكمته ومحبته، كل رغباتكم سوف يحققها كما ترى مشيئته.
وإذا لم يحققها، فلخيركم قد عمل، لا لحزنكم.

أخى، وما رأيك فى الأخ الكبير؟

غدا نفحص قضيته.